

مجموعة من الخدام والخدامات  
بكنيسة السيِّدة العذراء بمسطرد بالقاهرة  
الحاضرة بدير القديس أنبا مقار  
السَّبت ٩ أغسطس سنة ٢٠١٩م

## معنى أننا في المعمودية نموت بشبه موت المسيح

### تمهيد

هل نحن في المعمودية نشترك في حقيقة موت الرَّب وقيامته بسرٍّ لا يُعبَّر عنه؟ أي: هل نحن نموت فعلاً ونقوم فعلاً في المسيح؟ أم أن المعمودية هي تصوير لهذا الموت ولهذا القيامة؟ وإن كان الرَّسول بولس يقول: «قد مُتُّم وحياتكم مستترة مع المسيح في الله» (كولوسي ٣: ٣)، فهل يعني هذا موت حقيقي مع المسيح وفيه؟ ولكن لماذا يعود الرَّسول بولس ويقول في موضع آخر، بأننا: «قد صرنا متَّحدين معه بشبه موته...» (رومية ٦: ٥). فهل المعمودية هي شركة فعلية حقيقية في موت الرَّب أم شركة في شبه موته؟

### معنى أننا في المعمودية نموت بشبه موت المسيح

المعمودية ليست وسيلة نعمة ننالها، بل هي شركة فعلية في حقيقة موت الرَّب وقيامته. ومعنى هذا أن المعمودية لا تمثِّل أو تصوِّر هذا الموت، أو هذه القيامة في المسيح، كتعبير ظاهري عن هذا الإيمان، بل هي نفسها مضمون هذا الإيمان وحقيقته. هي ليست رمزاً أو مجازاً لهذا الإيمان. بمفهوم الرَّمز الذي نعرفه اليوم، أي أنها ليست رمزاً لشركتنا في موت الرَّب وفي حقيقة قيامته، بل هي حدث حقيقي لهذه الشَّركة، وهنا يكمن سرُّها، وهذا هو المدخل الوحيد للحياة مع المسيح وفيه.

وإن كانت المعمودية هي موت حقيقي وقيامه حقيقية في المسيح، فلماذا يقول الإنجيل المقدس عنها إنها موت بشبه موت المسيح؟ وذلك في قول الرَّسول بولس: «إن كنا قد صرنا متَّحدين معه بشبه موته  $\tau\alpha\ \delta\omicron\mu\iota\omega\mu\alpha\tau\iota\ \tau\omicron\upsilon\ \theta\alpha\nu\acute{\alpha}\tau\omicron\upsilon$  نصير أيضاً بقيامته» (رومية ٦: ٥)؟

علينا أن نجيب على هذا السؤال من وجهتين، أولاً من الوجهة اللغوية، وثانياً من الوجهة التفسيرية. تكلمتُ في يوم ٧ نوفمبر سنة ٢٠١٧م عن موضوع عنوانه: "معنى الرَّمز والمثال في نصوص الصَّلوات الليتورجية وعند آباء الكنيسة". وهي محاضرة مهمّة أرجو الرُّجوع إليها. وقلتُ فيها إن استخدام الرَّمز والشَّبه والمثال في التُّراث الكنسي المبكَّر وعند آباء الكنيسة، يختلف عن استعمال اللاهوتيين المتأخِّرين لهذه المصطلحات، والذين عندهم حُجْم الرَّمز من كونه مفهوماً يشرح حقيقة ما يحدث إلى مفهوم يرمز مجازاً إلى ما يحدث.

فالتَّمييز بين الرَّمز أو الشَّبه أو المثال من جهة، وبين الحقيقة من جهة أخرى، لم يكن وارداً عند آباء الكنيسة الأوَّلِين. فالرَّمز أو الشَّبه أو المثال يتضمَّن الحقيقة ويُعبَّر عنها، وهو الصَّبغة التي تُظهر الحقيقة فيها ومن خلالها. أو بمعنى آخر فإن الرَّمز يكشف حقيقة ما يرمزُ إليه، وينقل إلينا هذه الحقيقة. يكشف إمكانية رؤية ما لا يُرى من حيث أنه لا يُرى، وإمكانية إدراك ما لا يُدرك من حيث أنه لا يُدرك. أو بمعنى أوضح فإن الرَّمز أو الشَّبه أو المثال بحسب المفهوم الأبائي هو إعلان وحضور حقيقة لا يمكن في الظروف الرَّاهنة أن تكشف نفسها إلا من خلال الرَّمز.

هذا يوضِّح لنا ما يعنيه الكتاب المقدس بقوله عن المسيح له المجد: «أخلى نفسه آخذاً صورة عبد، صائراً في شبه  $\epsilon\nu$   $\delta\omicron\mu\iota\omega\mu\alpha\tau\iota$  النَّاسِ» (فيلبي ٧:٢). وهنا تعبير "شبه النَّاس" يعني حقيقة أنَّ الله كونه لم يزل إلهاً ولكنَّه أتى وصار إنساناً مثل كلِّ إنسان ما خلا الخطيئة وحدها.

ولا ينبغي أن نُغفل أن الكلمة اليونانية  $\delta\omicron\mu\iota\omega\mu\alpha$  والفعل منها  $\delta\omicron\mu\iota\omega$  بمعنى "يشبه - يتشبه - يشابه" لها معانٍ أخرى كثيرة، مثل: صورة - صورة طبق الأصل - رسم - شكل - رمز - علامة ... إلخ. لذلك يلزم الانتباه إلى أن ترجمة هذه الكلمة لا تكون واحدة في كلِّ الحالات. مثل قول القديس يعقوب الرسول عن اللسان: «به نبارك الله، وبه نلعن النَّاس الذين تكونوا على شبه  $\Theta\epsilon\omicron\upsilon$   $\delta\omicron\mu\iota\omega\sigma\iota\nu$   $\kappa\alpha\theta'$  الله» (يعقوب ٩:٣). فهنا تعبير "شبه الله" يعني "صورة الله"، وذلك بحسب الترجمة العربية المشتركة للكتاب المقدس، ولكن ليس صورة طبق الأصل من الله. يقول المزمور: «لأنه من في السحاب يعادل الرَّبِّ، ومن يشبه الرَّبِّ بين أبناء الله» (مزمور ٦:٨٩).

هذا من الوجهة اللغوية. وأمَّا من الوجهة التفسيرية، فإننا في المعمودية نشترك في شبه موت المسيح، وليس في جوهر موته، لأنَّ موت المسيح كان موتاً خلاصياً من أجل كلِّ العالم، أي أنَّ موته كان من أجلنا كلنا، أمَّا أنا فأموت مع المسيح وفيه، لكي أحيانا الله بالمسيح، حينما يقوم المسيح دائماً الموت بموته، فلا أكون بعد عبداً للخطيئة التي كانت سبب موتي. لذلك يقول الرسول بولس: «إنَّ الخطيئة لن تسودكم، لأنكم لستم تحت التَّاموس بل تحت النِّعمة» (رومية ٦:٤). ف«لا نعود نُستعبد للخطيئة» (رومية ٦:٦).

نحن نموت بشبه موته، وليس في جوهر موته، لأنَّ الفرق بينهما هو الفرق بين ما هو إلهي وما هو بشري، ولكنَّه في كلا الحالين موت حقيقي. ولأنَّ موتنا لا يكمله سوى موت المسيح وحده. فنجائنا لا تكون بموتنا نحن فحسب، بل بموتنا في المسيح الذي بموته بجسده المتَّحد بلاهوته أباد الموت الأبدي، إذ أفرز فيه قوَّة حياة أَمْضَتْه من الموت حائزاً نصراً وحياتاً لكلِّ من يجوزون معه في شبه موته بالمعمودية.

ويشرح الرسول بولس هذا السرَّ، أي سرَّ موتنا وقيامتنا في المسيح فيقول: «الله بيِّن محبَّته لنا، لأنه ونحن بعد خطاة مات المسيح لأجلنا» (رومية ٨:٥). ويكمل الشرح بقوله: «إنَّ كُنَّا قد مُتْنَا مع المسيح، نؤمن أننا سنَحْيَا أيضاً معه» (رومية ٨:٦). وقوله أيضاً: «لأنكم قد مُتُّم وحياتكم مستترة مع المسيح في الله» (كولوسي ٣:٣). ومن أجل ذلك ينشد الرسول بولس أنشودة الغلبة والخلاص، فيقول: «ونحن أموات بالخطايا، أحيانا (الآب) مع المسيح» (أفسس ٥:٢).